عصر المأمون

تقدم الجائزة الفاضل احمد فريد رفاعي المفتش بوزارة الداخلية الى نيل شهادة الدكتوراه من الجامعة المصرية برسالة موضوعها « عصر المأمون » عكف على وضعها في اوقات فراغه من اعماله الادارية المختلفة مدة ١٣ سنة . والرسالة في نحو الف صفحة تنقسم الى ثلاثة اقسام. الاول في العصر الاموي وما لهُ من العلاقة بالعصر العباسي عامة . والثاني يتناول عصر الانتقال من العهد الاموي الى العهد العباسي . والثالث وهو الجانب الاكبر من الرسالة يتناول عصر المأمون من جميع وجوهه السياسية والمالية والادارية والعلمية والادبية والدينية . والرسالة اقرب ان تكون سجلاً تاريخياً منها رسالة من الرسائل التي تقدم عادة في مثل هذه الاحوال لما فيها من البحث المستفيض والجمع لشتات اقوال المؤرخين الخاصة بذلك العصر ومقارنتها بعضها ببعض ، فاعجب اساتذة الجامعة بها ومنحوا صاحبها لقب « دكتور » من درجة فائق بعد مناقشته فيها طلناً . وقد اطلعنا على بعض ما فيها من الجمع والتحقيق والتحليل فاقتطفنا فقرتين من فصل عقده المؤلف لتحليل شخصية المأمون فتكلم فيه على كرمه وسخائه وتقديره لرجال الدولة وعدله وانصافه وعفوه وعلمه وبصره بالادب وسياسته ومذهبه الديني . وقد بدأت المطبعة الاميرية بدار الكتب المصرية تطبع هذه الرسالة وستصدر قريباً في مجلدين كبيرين

سياسة المأمون

كان المأمون سياسياً وسياسياً فذاً . وليس ادل على دهائه السياسي (ديلوماطيقيته) من خطته التي لا نجد في عصره ما هو احكم منها ولا اسد مع ركونه الى مشاورة شيعته وانصاره اذا حزب به امر

ولا ادل على كياسته وكبير مهارته من تصرفاته مع سفراء اخيه الامين مما وقفنا عليه طرف منهُ في فصل النزاع بين الاخوين

ولقد كان سياسياً وسياسياً فذاً في تزوجه من بوران بنت الحسن بن سهل ليكسب الحزب الفارسي وفي تزويجه علي بن موسى الرضى ابنتهُ ام حبيب ومحمد بن علي بن موسى ابنتهُ ام الفضل ليكسب الحزب العلوي رامياً بذلك كله الى ضمان تأييد الاحزاب لهُ ، عارفاً لنفسيات الجمهور وامزجة الجماعات

وكان سياسيًّا وسياسيًّا فذًّا مصيبًا لباب الصواب في قوله لاحمد بن ابي داود عن اهل بغداد «الناس على طبقات ثلاث في هذه المدينة (يعني بغداد) ظالم ومظلوم ولا ظالم ولا مظلوم فاما الظالم فليس يتوقع الا عنونا واسا كنا واما المظلوم فليس يتوقع ان ينصف الا بنا ومن كان لا ظالمًا ولا مظلومًا نبيتهُ بسهُ »

وكان سياسيًّا وسياسيًّا فذًّا في مداراتهِ لعمالهِ وليس ادل على ذلك من تصرفهِ مع ابراهيم بن السندي صاحب الاخبار وقد رفع اليهِ خبرًا عن حادثة بمصر فكذبهُ عبدالله ابن طاهر فعنفهُ المأمون آلم التصنيف امام ابن طاهر ثم بعث اليهِ وقال لهُ « اني آمر وأداري عمالي وعمالم مداراة الخائف . والله ما اجد الى حملهم على المحجة البيضاء سبيلاً فاعمل على حسب ما تراني اعمل، ولئن لهم تسلم لك ايامك و يقض دينك »

وكان سياسيًّا وسياسيًّا فذًّا حينما رفع اليهِ صاحب خبره « انا اصبنا يا امير المؤمنين رقاعًا فيها كلام السفهاء والسفلة، وفيها تهديد ووعيد، و بعضها عندنا محفوظة الى ان يأمر امير المؤمنين فيها بامره فكتب المأمون بخطهِ هذا امرٌ ان اكبرناه كثرنا بهِ واتسع علينا خرقه، فمر اصحاب اخبارك متى وجدوا من هذه الرقاع رقعة ان يمزقوها قبل ان ينظروا فيها فانهم اذا فعلوا ذلك لم يرفعا اثر ولا عين. ففعلوا ذلك فكان الامر كما قال »

***

وتعالَ ننظر نظرة تحليلية قصيرة فيما يرويهِ لنا زيد بن علي بن الحسين قال « لما كان في العمد بعد قدوم المأمون سنة اربع ومائتين والمأمون يتغدى وعلى مائدتهِ طاهر ابن الحسين وسعيد بن سلم وحميد بن عبد الحميد، وعلى رأسهِ سعيد الخطيب وهو يقرظ و يذكر مناقبهُ و يصف سيرتهُ ومجلسهُ، اذ انهملت عينا المأمون بالدموع فرفع يدهُ عن الطعام فامسك القوم حين رأوهُ بتلك الحال حتى اذا كفَّ قال لهم : كلوا ، قالوا يا امير المؤمنين وهل نسيغ طعامًا او شرابًا وسيدنا بهذا الحال . قال اما والله ما ذلك من حدث ولا لمكروه همت بهِ بأحد ولكنهُ جنس من اجناس الشكر لله ولعظمتهِ وذكر نعمتهِ التي انتها عليَّ كما انتها على أبوَيَّ من قبلي، اما ترون ذلك الذي في صحن الدار يعني الفضل ابن الربيع وكانت الستور قد رفعت ووضعت الموائد للناس على مراتبهم وكان يجلس الفضل مع اصحاب الحرس. قال المأمون : وكان الفضل بن الربيع في ايام الرشيد وحالهُ حالهُ يراني بوجه اعرف فيهِ البغضاء والشنآن ، وكان لهُ عندي كالذي لي عندهُ ولكني كنت ادار بهِ خوفًا من سطوتهِ وحذرًا من اكاذيبهِ فكنت اذا سلمت عليهِ فرد عليَّ اظل لذلك فرحًا و بهِ

مبتهجاً وكان صفوه الى المخلوع لحمله على ان اغراه بي ودعاه الى قتلي وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة فقال: اما القتل فلا اقتله ولكني اجعله بحيث اذا قال لم يطع واذا دعا لم يجب، فكان احسن حالاتي عنده ان وجه مع علي بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا في الفضة والحديد ليقيدني به وذهب عنه قول الله جل وعز «ومن بغي عليه لينصرنه الله» فذاك موضعه من الدار باخس مجالسها وادنى مراتبها. وهذا الخطيب على رأسي وكان بالامس يقف على هذا المنبر الذي بازائي مرة وعلى المنبر الغربي اخرى، فيزعم انى المأمون ولست بالمأمون ثم هو الساعة يقرظني لتقريظه المسيح ومحمداً عليهما السلام. فقال طاهر بن الحسين يا سيدنا فما عندنا فيهما وقد اباحك الله اراقة دمائهما فخصصتهما بالعفو والحلم. قال فعلت ذلك لموضع العفو من الله. ثم قال المأمون مدوا ايديكم الى طعامكم فاكل واكلوا...»

***

أليس بمستباغ لنا ان نستنبط مما قدمناه لك، ان المأمون كان سياسيًّا ذهنًا حاذقًا في تصرفه مع الفضل. الم يكن للفضل مكانة عند الرشيد ونفوذ بعيد المدى في الدولة؟ ألا يجوز ان سعايته بالمأمون واكاذيبه عليه ان لم يداره قد تجد آذانًا صاغية وانها قد تجر عليه من الشرور ما ليس له به يدان؟ الم يكن خير سبيل لاتقاء شائنه ان يداويه عملاً بقول ابي الدرداء «انا لنبش في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم»؟

فهل ترى سياسة احكم وبصراً بالامور احزم من تصرف المأمون ومداراته. ثم انظر ما كان من مداراته للفضل بن سهل كما صرح بذلك لولي عهده علي بن موسى الرضى ومداراته لطاهر بن الحسين قاتل اخيه وما كان من تصرفاته مع الوفود الامينية، فإنك لا محالة تؤمن معنا ان المأمون كان سياسيًّا. ولعل لاطلاعه على ما ترجم من المؤلفات اليونانية والفارسية مع استعداده الخاص ونزوعه الى البحوث الكلامية عامة وحبه للمشاورة واكتنافه بالرؤوس المفكرة الناضجة — لعل لهذا وامثاله الفضل في تكوين المأمون على ما رأيت وتخريجه على ما شاهدت

تقديره لرجال الدولة

ولقد كان المأمون اكثر توفيقًا من اخيه الامين في كفاية بطانته وقدرة قادته وحزم مشيريه وبصر ولاته، وكان مع ظفره بالناصحين من خاصته، كثير التأمل لما يجري في ملكه من مظاهر الضعف والقوة، حريصًا على تدبر ما يمر به من مختلف الشؤون مجتهداً في تعرف الشخصيات القوية التي يرجو ان يشد بها الملك و يتأيد بها النظام

ولقد حدثنا الطبري في تاريخه عن اسحاق بن ابراهيم ان المعتصم قال له: « يا اسحاق في قلبي امرٌ انا منكر فيه منذ مدة طويلة، وانما بسطتك في هذا الوقت لافشيهُ اليك. فقلت يا سيدي يا امير المؤمنين فانما انا عبدك وابن عبدك. قال: نظرت الى اخي المأمون وقد اصطنع اربعة فنجبوا واصطنعت انا اربعة لم ينجح احد منهم. قلت ومن الذين اصطنعهم اخوك؟ قال طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت، وعبدالله بن طاهر فهو الرجل الذي لم ير مثلهُ، وانت فانت والله الذي لا يمتاض السلطان عنك ابداً، واخوك محمد بن ابراهيم وابن مثل محمد. وانا فاصطنعت الاشبين فقد رأيت الى ما صار امرهُ واشناس فشل رأيهُ واجتاح فلا شيء، ووصيف فلا غنى فيه. فقلت يا امير المؤمنين جعلني الله فداك اجبت على امان من غضبك. قال قل. قلت يا امير المؤمنين اعزك الله نظر اخوك الى الاصول فاستعملها فانجبت فروعها واستعمل امير المؤمنين فروعاً لم تنجب اذ لا اصول لها. فقال يا اسحاق لقاساة ما مرّ بي في طول هذه المدة اسهل عليّ من هذا الجواب ». فكان الى هذه الخبرة بما يحتاج اليه من صفوة الرجال بصيراً بما في مملكته من الوالب الكر وصنوف الرياء

قال ابن طيفور عن ابراهيم المهدي قال: قال المأمون يوماً وفي مجلسه جماعة هانوا من في عسكرنا ممن يطلب ما عندنا بالرياء. قال فقال كل واحد بما عندهُ اما انت يقول في عدو بما يقدح فيه او يقول بما يعلم انهُ يسر خليفتهُ. فلما قالوا ذلك قال: ما ارى عند احد منكم ما يبلغ ارادتي، ثم انشأ يحدث عن اهل عسكره اهل الرياء حتى والله لو كان قد اقام في رجل كل واحد منهم حولاً محرماً ما زاد على معرفته. قال: فكان مما حفظت عنهُ في ثلب اصحابه ان قال حين ذكر اهل الرياء وما يعاملون به الناس تسبيح حميد الطوسي وصلاة قحطبة وصيام النوشجاني ووضوء المريسي وبناء مالك بن شاهي المساجد وبكاء ابراهيم بن بريهة على المنبر وجمع الحسن بن قريش اليتامى وقصص منجا وصدقة علي بن الجنيد وحلاوة اسحاق بن ابراهيم في السبيل وصلاة ابي رجا الضبي وجمع علي بن هشام القماص. قال حتى عددنا جماعة كثيرة فقال لي رجل من عظماء العسكر حين خرجنا من الدار بالله هل رأيت او سمعت بملك قط اعلم برعيته واشد تنقيراً من هذا قلت اللهم لا. فحدثت بهذا الحديث رجلاً من اصحاب الاخبار والعلم فقال وما نصنع بهذا قد شهدت رسالتهُ الى اسحاق بن ابراهيم في الفقهاء يخبر بمعايبهم رجلاً رجلاً حتى لهو بها اعلم منهم بما في منازلهم. وفي نوع هذه الاخبار عن المأمون دليل على عنايته بنشر

دعوة الملك الموطد الذي ييأس المخاتلون من التنكر لهُ والخروج عليهِ فان ظهور الملوك بالنفاذ الى سرائر الرعية يزيدهم قوة الى قوة وسلطاناً الى سلطان

***

وانّا اذا نظرنا الى من استوزرهُ واعلى مكانهُ واستخلصهُ لنفسهِ من رجالات دولتهِ وقواد ملكهِ لم نتردد في الحكم بمصلحة المأمون وانهُ كان الموفق السدد في اختيار اهل الكفايات والنبوغ

وقد كان الى جانب هذا يقدر الكفاية في خصومهِ . ولننظر فيما رواهُ الطيفوري عن الحسن بن عبد الخالق خاصّاً برأي المأمون في الفضل بن الربيع وهو الذي تعلم مقدار اساءتهِ اليهِ فقد قال عنهُ « كان يدبر الخطأ فيقع صواباً و يبعث بالجيش الضعيف فيقع بهِ النصر وادبّر انا فيقع بغير ذلك فلما وقفت على البصيرة من امري وفكرت في نفسي وعملت بالاحزم في ذلك ملت الى الحزم فوردت العراق وان الفضل بن الربيع بقية الموالي فلا تخبرهُ بذلك عني فاني أكره ان يبلغهُ عني ما يسرّهُ »

و يؤيد صحة هذه الرواية ما قالهُ بشر السلماني من المعاصرين قال : سمعت احمد بن ابي خالد يقول كان المأمون اذا امرنا بامر فظهر من احدنا فيهِ تقصير يقول : اترون اني لا اعرف رجالاً بباب لو قلدتهُ اموري كلها لقام بها . فقال بشر فقلت لاحمد بن ابي خالد يا ابا العباس من يعني قال الفضل بن الربيع

ويظهر ان خطة المأمون في تقدير الكفايات التي وُجدت قد اتبعها قادة المأمون نفسه فان الطيفوري يحدثنا انهُ لما ولى طاهر بن الحسين على شرطة المأمون سنة اربع ومائتين وكان عليها من قبل العباس بن المسيب بن زبير كتب طاهر الى الفضل ابن الربيع : ان في رأيك البركة وفي مشورتك الصواب فان رأيت ان تختار لي رجلين للجسر فكتب اليهِ بن الربيع قد وجدتهما لك وهما خيار السندي بن يحيى وعياش ابن القاسم فولاهما طاهر الجسرين

ونظن ان في هذا القدر الكفاية في اثبات تقدير المأمون ورجالات المأمون لاهل الكفاية

—o:o—